الإمام الذهبي ومنهجه في نقد متن الحديث الشريف

أطروحة لنيل درجة الدكتوراه

إعداد
حسن فوزي حسن الصعيدي

إشراف
الأستاذ الدكتور/ محمد فؤاد شاكر
رئيس قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية
(كلية التربية – جامعة عين شمس)

شكر وتقدير

أتوجه بجزيل الشكر إلى والدي حفظه الله على ما شملني بعنايته, وما أحاطني برعايته, وما ساعدني في مقابلة وتصحيح طبعات هذه الرسالة ، وفقه الله لما يحبه ويرضاه.

وكذلك إلى أستاذي وقدوتي الأستاذ الدكتور/ محمد فؤاد شاكر على ما قدم لي من نصح ، وذلل لي من مصاعب, ومهد لي وعر الطريق, ولم يضن علي بجهد أو وقت ، على كثرة أعماله ، فجزاه الله خير الجزاء.

وأشكر لجنة المناقشة التي تكرمت بقبول مناقشة هذه الرسالة ؛ شاكرًا لهم ذلك البذل ،ممتنًا لهم لذلك النصح ،مع علمي بعديد أعمالهم وكثرة اهتماماتهم ،فالله يتولى مكافأتهم .

كما أشكر كل من ساعدني ومد لي يد العون من إعارة الكتب وتذليل الصعاب في سبيل ذلك, وأشكر فريق العمل الذين قاموا بطباعة تلك الرسالة -فجزاهم الله خيرًا.

إهداء

إلى روح أمي الطاهرة ....

محلقة في رحمة الله وغفرانه ....

وجنات خُلده ورضوانه ....

أملاً كانت تتمنى أن تراه ....

ودربًا طالما دفعتني إلى منتهاه ....

اللهم ارفع درجاتها في عليين

واجمعها في الآخرة مع النبيين والشهداء والصديقين

واجعل ثواب هذا العمل في ميزان حسناتها

وارزقها النظر إلى وجهك الكريم

M

➢ الحديث عن السنة النبوية المطهرة تمتزج فيه البسمة بالعَبرة؛ إذ علت أصوات ذات نبرات جافية تشكك في حجية السنة، وسُلَّت أقلام بمداد من حقد أسود أو جهل مفرط تهاجم السنة في أقوى حصونها: الصحيحين، ومع اختلاف الدوافع والأهداف إلا أن وحدة التوجه قد جمعت تلك الطوائف في خندقٍ واحد.

➢ وصار حرم السُّنة المشرفة كلأً مباحًا للصحفيين والإذاعيين و... بل وكل من رام شهرة رخيصة في زمن قد نطق فيه الرويبضة وتحدث فيه لكع بن لكع.

➢ أضف إلى ذلك ما نراه اليوم من مظاهر الجفاء بين الأمة ونبيها الخاتم وقائدها الأعظم ρ، إذ تهاون الكثير في سنته، ورغب العديد عن سيرته ρ.

➢ وفي الوقت ذاته هاهي مظاهر صحوة مباركة، وعودة ميمونة إلى ذلك المعين الصافي، والمورد العذب، سلوكًا وعملاً، دعوةً وفكرًا.

هاهي حركة تحقيق التراث الإسلامي عامة، والحديثي خاصة تملأ سمع الدنيا وبصرها، وهاهي شمس البحوث الحديثية تسطع من جديد، فالله حافظ دينه، ومخلد سنة نبيه، ومقيض لها من يحفظها ويبلغها، ويذود عنها، ويدفع ما ألصق بها.

∃ **مكانة النبي ρ :**

➢ رسول الله ρ خاتم النبيين وإمام المرسلين، صاحب الحوض المورود، واللواء المحمود، قد تضافرت آيات الكتاب العزيز لبيان مكانته ووجوب طاعته، كما تتابعت الآيات تحذر من مخالفة أمره، وتتوعد من ينكث عن اتباع هديه، فما نطقه ρ وقوله إلا بوحي، وما فِعله وسلوكه إلا بتوقيف وتشريع.

➢ فقد نزه الله تعالى مصطفاه عن العبث، وألزم أتباعه الانقياد لأمره، والإذعان لنهيه، فهو الأسوة والقدوة. وقرن الله تعالى سنته بالقرآن الكريم، وبيَّن أن النبي ρ يهدي إلى طريق مستقيم.

➢ قال تعالى: ﴿ ﴾ [النساء: 80].

وقال عز وجل: ﴿ ﴾ [الحشر: 7].

وقال سبحانه: ﴿ ﴾ [آل عمران: 31].

وقـــال تعـــالى: ﴿ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ﴾ [الشورى: 52].

وقـــال ســـبحانه: ﴿ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ﴾ [النور: 63].

➢ وقد فهم سلف الأمةِ ذلك، فاقتفوا أثره، وتنافسوا على اتباع سنته والالتزام بهديه ρ.

➢ قال أبو بكر الصديق τ: «لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ρ يعمل به إلا عملت به، إني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ»[1].

➢ ووقف الفاروق τ يخاطب الحجر الأسود قائلاً: «والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ρ يقبلك ما قبلتك»[2].

➢ وجاء رجل لعمران بن الحصين مستنكرًا التحدث عن رسول الله ρ، وزاعمًا أن تلاوة آيات القرآن تكفي المسلمين فقال عمران بن الحصين τ: «أرأيت إن أبيت أنت وأصحابك إلا القرآن، من أين كنت تعلم أن صلاة الظهر عدتها كذا وكذا، وصلاة العصر عدتها كذا وكذا، وحين وقتها كذا... والموقف بعرفة ورمي الجمار...»[3].

➢ ويتحدث الشافعي عن السنة الصحيحة الثابتة ووجوب الانقياد لها قائلاً: «وإذا ثبت عن رسول الله ρ الشيء، فهو اللازم لجميع من عرفه، لا يقوّيه ولا يوهنه شيء غيره؛ بل الفرض الذي على الناس اتباعه»[4].

➢ ويحكي الحافظ ابن تيمية الإجماع على ذلك فقال عن العلماء المتبعين: «فإنهم متفقون اتفاقًا يقينيًّا على وجوب اتباع الرسول، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ قوله ويترك إلا رسول الله ρ»[5].

➢ ورسول الله ρ في سنته بيْن مُبيّن لمراد الحق سبحانه في كتابه، وبين

---

(1) البخاري، كتاب فرض الخمس (227/6 رقم 3093)، ومسلم، كتاب الجهاد، باب قول النبي ρ: «**لا نورث...**» (240/3 رقم 1759).
(2) البخاري، كتاب الحج، باب ما ذكر في الحجر الأسود (540/3 رقم 1597).
(3) الخطيب، الكفاية ص15.
(4) الشافعي، الرسالة ص330، رقم 905.
(5) ابن تيمية، رفع الملام عن الأئمة الأعلام، ص10، المكتب الإسلامي ط. 3، 390هـ.

مشرِّع لأحكام ليست في القرآن الكريم، وإنما كان قوله ρ تشريعًا لأمر الله تعالى باتباع أمره.

➢ قال الإمام أحمد رحمه الله: «إن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه... جعل رسوله الدال على ما أراد من ظاهره وباطنه، وخاصه وعامه، وناسخه ومنسوخه، وما قصد له الكتاب، فكان رسول الله ρ هو المعبِّر عن كتاب الله، الدال على معانيه»[1].

➢ وقال الشافعي: «إن الله جل ثناؤه وضع رسوله موضع الإبانة لما افترض على خلقه في كتابه، ثم على لسان نبيه ρ، وإن لم يكن ما افترض على لسانه نصًّا في كتاب الله، فأبان في كتابه أن رسول الله ρ يهدي إلى طريق مستقيم صراط الله، ففرض على العباد طاعته، وأمرهم أخذ ما آتاهم والانتهاء عما نهاهم عنه، وكان فرضه على كل من عاين رسوله ومَنْ بعده إلى يوم القيامة واحدًا، في أن على كلٍّ طاعته»[2].

➢ وإذا تجاوزنا العلماء العاملين إلى عموم الأمة، فإن حب النبي ρ يسري في العروق ويختلط بالدماء، وكم تشتاق النفوس لزيارة مدينته والصلاة في مسجده، والأنس في روضته والسلام عليه في قبره العاطر.

➢ وكم لهج المحبون بمدحه ρ قديمًا وحديثًا.

➢ ومن ذلك ما قاله البوصيري في ميميته:

وراودته الجبال الشم من ذهب ... عن نفسه فأراها أيما شمم
فاق النبيين في خَلق وفي خُلقِ ... ولم يدانوه في علمٍ ولا كرم
وكلهم من رسول الله ملتمس ... غرفًا من البحر أو رشفًا من
دع ما ادعته النصارى في نبيهم ... واحكم بما شئت مدحًا فيه
وانسب إلى ذاته ما شئت من ... وانسب إلى قدره ما شئت من
فإن فضل رسول الله ليس له ... حد فيعرب عنه ناطق بفم
فمبلغ القول فيه أنه بشر ... وأنه خير خلق الله كلهم

➢ إلى غير ذلك مما يقصر عن بيانه المادحون، ويعجز عن التعبير عنه المحبون.

∃ **من حقوق النبي ρ :**

(1) ابن القيم، أعلام الموقعين (367/2)، تحقيق طه عبد الرءوف، مكتبة الكليات الأزهرية.
(2) الشافعي: اختلاف الحديث ص35، تحقيق عامر أحمد، مؤسسة الكتب الثقافية.

➢ الرسول ρ أفضل الخلق، وحبيب الحق سبحانه، لم يُرَ في الوجود نفسًا أسمح، ولا عقلاً أرشد، ولا طبيعة أجود، ولا فطرة أزكى منه ρ، كان الحلم والعفو من سجاياه، وتحمُّل العنت والصبر على الشدائد من خلقه ومزاياه، ضرب المثل الأعلى في كل الميادين فهو الراهب العابد، وهو الغني الزاهد، في الحرب أسدٌ هصور، وفي السلم رحيمٌ غفورٌ، زوج مخلص، وأب حانٍ، وجدٌّ عطوف، وصهرٌ لبيب، تخلَّق بخلق ربه فصار العدل أنزل أحواله، فصفح عن المسيء وبادله بالسوء إحسانًا، لم ينس الأرملة واليتيم والمسكين، ولم يتكبر على ضعيف أو فقير أو عاجز، آذاه قومه فصبر، وأدموا قدميه فغفر، وناصبوه العداء فلم يَعْدُ أن قال: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**».

➢ آذوه في نفسه وأصحابه وآل بيته، فلما مكنه الله منهم قال: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

➢ صبر على شظف العيش وقلة المأكل والملبس، ورضي أن يعيش بين أصحابه كأحدهم، كانت نفوس الملوك والزعماء تتوق إلى الملك والزعامة، وكان رسول الله ρ ينظر إلى الآخرة.

➢ عبَدَ الله حتى تورمت قدماه، وبكى من خشيته ومن لذة مناجاته، لم يُعرف له ρ ساعة راحة، أو وقت دعة، ولم يُعرف عنه أنه ضحك ملء فيه وقلبه، وإنما هي ابتسامات تكشف عن ثناياه ونواجذه. فهو يؤم المصلين، وينشر العلم، ويستقبل الوفود، ويدعو المشركين، ويجهز السرايا، ويعبئ الجيوش، ويوزع الزكاة، ويقسم الغنائم، ويعود المريض، ويتبع الجنائز، ويتفقد الغائب، ويتحمل عن المدين، ويطعم الطعام، ويلاطف الأسير، وينصت للمتكلم، ولا يدع يده من يد من يصافحه حتى يدع الآخر، يرعى حقوق أزواجه على كثرتهن، ويهتم بأمور ذريته، يصلح نعله، ويرقع ثوبه، ويكون في مهنة أهله ρ.

➢ فتحت عليه الدنيا فكان نصيبه منها كأقل أصحابه، وكان يهرب منها قائلاً: «**ما لي وللدنيا!**»، لم يعرف له حاجب يمنع الناس عنه، ولم يكن لصيقًا بطبقة دون أخرى، بل كان الضعيف والفقير واليتيم وذو الحاجة أقرب الناس إليه، فبأبي أنت وأمي يا رسول الله، فداك روحي ودمي ما أعظمك وما أجلك، اللهم آته الوسيلة والفضيلة، والدرجة العالية الرفيعة، وابعثه اللهم المقام المحمود الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد.

➢ وكما قيل: الحق ما شهدت به الأعداء، فقد اعترف بعظمة محمد ρ أعداء الإسلام، ولم ينكر فضله أصحاب الملل المحرَّفة والنِحل الباطلة، فقال أحدهم: العظماء في العالم مائة وأعظمهم محمد ρ.

➢ وقال الآخر: لو أن محمدًا ρ يحيا بيننا الآن لاستطاع أن يحل مشاكل العالم وهو يرتشف رشفة من فنجان قهوة.

➢ وغير هذه الشهادات كثير وكثير، كما أننا لسنا بحاجة لسرد أقوال مخالفيه في مدحه والثناء عليه وإطرائه والإعجاب به، فقدر رسول الله عالٍ ومنزلته رفيعة ومكانته سامقة، فقد زكَّاه الله من فوق سماواته قائلاً: ﴿ [النجم: 3]، وقال عز وجل: ﴿ [النجم: 5]، وقال سبحانه: ﴿ [القلم: 4].

∃ من مظاهر الجفاء:

➢ ولكن مع بعد الزمن وتقاصر الهمم، وبسط الدنيا نفوذها وسلطانها على قلوب الكثيرين، والانشغال بحطام زائل وزخرف عاجل تحولت تلك المحبة للنبي ρ إلى ذكريات، وصارت سيرته العطرة كلمات تقال في المناسبات، وقَلّ مشمر للاتِّباع أو جادٌ في الاقتداء، وصار الهجر والجفاء لروح السنة لا ألفاظها، فكم من عالم بالسنة غير عامل بها، وكم من حاملٍ أسفارًا لا يدري ما فيها.

➢ أضف إلى ذلك التقليل من شأن السنن: الواجبة والمؤكدة والمندوبة، والنظر إليها دون اهتمام والتحدث عنها بلا اعتناء، وعدم الحرص على تعلمها أو البحث عنها، وكذلك تجرؤ البعض -دون معرفة بالسنن، أو علم بالشريعة- على الأحاديث الصحيحة التي تلقتها الأمة بالقبول، والتي أثبتها نقاد الحديث، أو لكونها أحاديث آحاد، إلى غير ذلك من دعاوى لا تثبت أمام البحث والمحاققة.

➢ ومن ذلك العدول عن السنن وعدم الاقتداء بالسيرة النبوية المطهرة إلى آراء وأقوال كثيرين من الساسة والحكماء والمفكرين، وتقديم آراء هؤلاء بين يدي الله ورسوله؛ بل إن هيبة كلام النبي ρ كمصدر تشريع، ولسان وحي آخذة في الانتزاع شيئًا فشيئًا، فقد كان ذكر اسم النبي ρ أولاً يرقق القلوب ويحرك المشاعر، ويبعث على التوقير والاحترام؛ فأين الأدب مع النبي ρ عند قومٍ يعرضون السنَّة مع أهواءهم، فيختارون ما تقبله طباعهم، ويدعون ما يتعارض مع رغباتهم؟! أين ذلك التوقير مع تنصيب كلّ نفسه للحكم على الأحاديث النبوية بالقبول والرد، والصحة والضعف، رحم الله أمة الإسلام، وطهَّر ساحتها من كل دَعيٍّ متسلق.

∃ حب النبي وسام المحبين:

➢ حب النبي ρ من أصول الدين، ولا يكتمل إيمان عبد حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وقد توعَّد الله تعالى من يقدم حب الآباء والأبناء والزوجات والمال والممتلكات على حب الرسول ρ، ووصفهم بأنهم فاسقون.

➢ وبيَّن النبي ρ أن محبة الله والرسول هي السبيل للشعور بحلاوة الإيمان، فقد قال زيد بن الدثنة وهو في انتظار أن تضرب عنقه: «والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وإني جالس في أهلي»[1].

➢ وقام سادة المهاجرين والأنصار يوم بدر بين يدي النبي ρ قائلين: «لو استعرضت بنا البحر لخضناه معك، نقاتل بين يديك ومن خلفك، وعن يمينك وعن شمالك».

➢ وقد وصف عروة بن مسعود حال الصحابة بين يدي النبي ρ قائلاً: «والله إنْ تنخَّم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإن أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وَضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون النظر إليه تعظيمًا له»[2].

∃ دلائل المحبة:

➢ ما أرخص المحبة إن كانت قولاً، وما أيسر الادعاء إن كان عاريًا عن الحقيقة! وكثيرًا ما تُدَّعى المحبة، فإن دققت النظر انكشف الزيف وظهر الانحراف.

➢ فالحب صدق ورحمة، ووفاء وإخلاص، والمحبون لا يعرفون قسوة أو خيانة، ولا غدرًا أو عدوان، لا تدفعهم مصلحة، ولا يمنعهم ألم، الحب مسطور في العيون بمداد من الدموع والعبرات، يجمع أحدهم بين لظى الشوق وبرد السكينة، لا يرى إلا بعين المحب، ولا يتكلم إلا بلسانه، ولا يفكر إلا بعقله، ومن أحب المصطفى ρ حبًّا صادقًا ظهر ذلك على فكره ولسانه وجوارحه، فهو دائم الفكر في اتباعه، ودائم الذكر له ولأقواله، ودائم العمل بمقتضى سنته وبيانه.

➢ ومن ذلك تقديم النبي ρ وتفضيله على كل أحد والثناء عليه والإكثار من ذكره والتشوق لرؤيته، والتحدث بخصائصه ومعجزاته، وبيان منزلته وصفاته، ومكانته وأخلاقه، والحديث عن سيرته وغزواته، مع التأدب عند ذكره، وتوقير حديثه، وعدم التقدم بين يدي قوله أو فعله، مع تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر، والتحاكم إلى سنته والدفاع عنها، ونشر هديه وطريقته.

➢ ومن ذلك الخروج من النطاق اللفظي إلى آفاق الاتجاه العملي فعلم بلا عمل كنز لا ينفق، قال الخطيب: «العلم شجرة والعمل ثمرة»، وقال بعض الحكماء: «العلم خادم العمل، والعمل غاية العلم، فلولا العمل لم يطلب علم»[3].

---

(1) ابن الجوزي، صفوة الصفوة (649/1).
(2) البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب (2529).
(3) الخطيب: اقتضاء العلم العمل ص14، 15، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب

➢ وكما أن الأموال دون إنفاق كالعدم، فإن المعرفة بالسنن وحفظ ألفاظها وفهم مضمونها لا قيمة له إن لم يعمل بها.

➢ قال محمد بن المنكدر: «العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل»[1].

➢ وقديمًا قيل:

اعمل بعلمك تغنم أيها الرجل ... لا ينفع العلم إن لم يحسن العمل

والعلم زين وتقوى الله زينته ... والمتقون لهم في علمهم شغل

وحجة الله يا ذا العلم بالغة ... لا المكر ينفع فيها لا ولا الحيل

➢ قال أبو الدرداء: «إن أخوف ما أخاف على نفسي أن يقال لي: يا عويمر، هل علمت؟ فأقول: نعم، فيقال لي: فماذا عملت فيما علمت؟»[2].

➢ ومن ذلك العمل بمقتضى السنة دون تحريف، ولا ينبغي أن يحمَّل النص غير ما يحتمل لموافقة هوى أو مذهب، قال ابن القيم: «ينبغي أن يفهم عن رسول الله ρ مراده من غير غلو ولا تقصير، فلا يُحمَّل كلامه ما لا يحتمله، ولا يقصر به عن مراده، وما قصده من الهدى والبيان، وقد حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله»[3].

➢ ومع الخلافات الفقهية التي وقعت بين أكابر الأئمة يبين الحافظ ابن تيمية أن ذلك ليس عن هوى وعصبية، أو عزوفًا عن السنن فقال: «وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عامًّا يتعمد مخالفة رسول الله ρ في شيء من سننه دقيق أو جليل، فإنهم متفقون اتفاقًا يقينيًّا على وجوب اتباع الرسول ρ، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ρ، ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه، فلابد له من عذر في تركه»[4].

➢ وقد أرجع الحافظ ابن تيمية ذلك إلى عدم ثبوت صحة النص عند من لم يعمل به، أو اعتقاد أن المسألة المختلف فيها لا ينطبق عليها ذلك النص محل النزاع، وربما اعتقد المخالف نسخ تلك الرواية، أو أن الحديث يعارضه ما يدل على ضعفه أو تأويله[5].

الإسلامي، ط. 5، 1404هـ -1984م.

(1) السابق ص36.
(2) السابق ص42.
(3) ابن القيم، الروح ص .
(4) ابن تيمية، رفع الملام ص22، 23.
(5) السابق ص37-48.

➢ هذا ما يظن بأئمة السنة، لا أنهم يخرجون عن الأطر النبوية، أو يقدِّمون آراءهم بين يدي قول النبي ρ؛ إذ الطريق إلى الجنة لا بد فيه من المرور على طاعة الرسول، وشهادة الإيمان لا تتم إلا بخاتم النبوة.

➢ والحق أن من تصدى لمعرفة سنن الهدى وتعرض لنقد الحديث الشريف إنما أعلى بذلك شرفه، ورفع بهذا ذكره، وذلك لأن الشيء «يشرف بشرف موضوعه أو بمسيس الحاجة إليه»(1).

➢ فلولا الحديث لما سطع نجم البخاري ومسلم، ولما ذكر ابن المديني وأحمد، ولا عرف يحيى القطان ولا شعبة وآخرون كثيرون، «وهكذا أصبح الذين اتصلوا بالشخصية الكريمة التي وعد الله لها بالخلود وبقاء الذكر وانتشار الاسم ↓ ❒◆⓺◆▫⬧➔⬃⬤◆⬳ ⬴⬰⬦⬧ ❶⬊⬖⬋⬉⬧◆⬣⬦⬧⬚ ↑ [الشرح: 4] أصبح الذين اتصلوا بها موضوع الدارسين والباحثين وخرجوا من زوايا الخمول، واستحقوا الحياة والاشتهار»(2).

وجوب اتباع السنة

➢ تضافرت الآيات من كتاب الله العزيز لتبين مكانة رسول الله ρ من ربِّه, ومنزلته من التشريع, وكيف افترض الله تعالى على العباد طاعة نبيه مقرونة بطاعته عز وجل, كما حذر من مخالفة أواوامره ρ, وتوعد المخالف, مبينًا أن رسول الله ρ لم يكن ليذر الكذب على الناس ثم يكذب على الله, وإنما نطقه وعمله وتوجيهه بتوفيق الله ووحي.

➢ كما أنه ρ -حاشاه- لو تجرأ على هذا لم يكن الله ليقره على ذلك؛ بل توعد الله من تقول عليه بالعذاب المبين قال تعالى: ↓ [الحاقة: 44- 46].

ꓱ **منزلة السنة من القرآن :**

➢ قرن الله تعالى طاعته بطاعة نبيه والإيمان به, ورد الأمور إليه ρ قال تعالى: ↓ ↑ [النساء: 59], وقال عز وجل: ↓

(1) القاسمي، قواعد التحديث ص36، ط.1، 1399هـ-1979م.
(2) عبد الحليم محمود، السنة ومكانتها في التشريع ص68، المكتبة العصرية صيدا.

[الأنفال: 24].

ورفع الله مكانة مصطفاه, ونزه قوله عن العبث, وألزم أتباعه الانقياد لأمره, والإذعان لنهيه, ففيه القدوة والأسوة, قال تعالى:

[الحشر: 7], وقال عز وجل:

[النساء: 65].

وبين الله تعالى أن طاعة رسوله من طاعته ووعد على ذلك خير الجزاء, كما حذر من خالف أمره أو أعرض عن طاعته وأوعد على ذلك بالعذاب المهين، قال تعالى:

[النور: 54], وقال عز من قائل:

[النور: 63].

وقرن تعالى بين قرآنه وسنة نبيه, وأوضح أن السنة لا تعدو بيان مراد القرآن الكريم, أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر. قال تعالى:

[الأعراف: 157].

وأكد سبحانه أن تلك المنزلة لم يرتق إليها النبي ρ إلا لأنه لا ينطق عن الهوى, ولا يتحدث إلا بأمر من الله ووحي, وإن كان رسول الله ρ بشرًا إلا أنه تشرف بحمل هذه الرسالة. قال تعالى:

[الأحقاف: 9].

وجوب الانقياد للسنة :

➢ سنة الرسول شقيقة القرآن, فما نطق رسول الله ρ عن الهوى, وما ثَمَّ إلا وحي وهدى من الله جل ثناؤه, لذلك وجب على الخلق طاعته, ولزمهم الانقياد لأمره ونهيه, والمصير إلى قوله, فذلك ليس استحبابًا, وإنما وجوبًا, لا يحق لأحد أن يخالفه أو يحيد عنه.

➢ قال رسول الله ρ: «**يا أيها الناس كتب عليكم الحج**, فقيل: يا رسول الله, أفي كل عام؟ قال: **لا, ولو قلتها لوجبت, الحج مرة واحدة, فما زاد فهو تطوع**»[1].

➢ وحذر النبي ρ من الإعراض عن سنته ودعوى التمسك بالقرآن وحده فقال: «**يوشك رجل منكم متكئًا على أريكته يحدث بحديث عني فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله فما وجدنا فيه من حلال استحللناه, وما وجدنا فيه من حرام حرمناه, ألا وإن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله عز وجل**»[2].

∃ بيان السنة للقرآن وكونها من مصادر التشريع

➢ السنة مبينة للقرآن, دالة على أحكامه, شارحة لمراده, فكثير من الأوامر المجملة كإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وغير ذلك: كانت السنة هي البيان العملي لها, وكثير من الآيات الواردة مورد العموم جاءت السنة المطهرة بتقييد لذلك العموم, ومن ثم كان العمل بدلالة السنة.

➢ وقد جاء القرآن الكريم بالتوارث بين الأبناء والآباء, قال تعالى: ↓ ☎ ↑ إلى قوله تعالى: ↓ [النساء: 11].

➢ فظاهر هذه الآيات إطلاق المواريث بين كل أب وابنه, غير أنه «جاءت السنة بأن المراد مع اتحاد الدين بين الوالدين والمولودين, وأما إذا اختلف الدينان, فإنه مانع من التوارث, واستقر العمل على ما وردت به السنة في ذلك»[3]. قال رسول الله ρ: «**لا يرث المسلم الكافر، ولا الكافر المسلم**»[4].

---

(1) مسلم (411/2 رقم 133/7), كتاب الحج باب فرض الحج مرة في العمر.
(2) الترمذي (37/5 رقم 2664) كتاب العلم, و أبو داود (199/4 رقم4604), كتاب السنة باب في لزوم السنة.
(3) الخطيب, الكفاية (13/12).
(4) البخاري (51/12 رقم 6764), كتاب الفرائض باب لا يرث المسلم الكافر, ومسلم (88/3 رقم 1614), كتاب ا لفرائض.

➢ وأمر الله تعالى بقطع يد السارق, قال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: 38], وذلك أمر عام في كل سارق, ولكن السنة المطهرة خصصت ذلك العموم, فاستثنت منه بعض السراق الذين يغلب عليهم عدم احتراف ذلك العمل, وذلك يتضح من قيمة المسروق.

➢ قال الخطيب: «حتى دلت السنة أن المراد به بعض السراق, وهو من بلغت سرقته في القيمة النصاب وهو ربع دينار فصاعدًا, وأما من لم تبلغ سرقته هذا القدر, فلا قطع فيه»[1].

➢ قال رسول الله ρ: «**تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعدًا**»[2].

➢ وكما بينت السنة مراد القرآن وفسرت تطبيق أوامر ذلك الكتاب الكريم, فقد كانت السنة أيضًا نوعًامن أنواع الوحي, ومصدرًا من مصادر التشريع, يلزم العمل به, وينسب إلى إرادة الله عز وجل.

➢ ومن ذلك حديث العسيف الذي زنى بامرأة صاحب عمله, وعندما زعموا لأبيه قسوة الحد افتدى ولده, وصالح زوج المرأة على خادم وغنم, فلما احتكما إلى رسول الله ρ قال: «**والذين نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله**» الحديث[3]. وفيه رجم المرأة إن اعترفت وجلد العسيف وتغريبه عامًا. وليس في كتاب الله غير الجلد, أما الرجم والتغريب فشرعا بسنة رسول الله ρ.

➢ ومن ذلك أيضًا أمر التوجه إلى بيت المقدس في الصلاة أولاً قبل أن تنسخ هذه القبلة, فقد ورد في كتاب الله تحويل هذه القبلة فقد قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: 143]. فالآية تبين أن القبلة الأولى كانت بوحي من الله, ولكنه ليس متلوًّا, ثم نزل الوحي المتلو يغير هذه القبلة, قال تعالى:﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: 144], قال د. عبد الخالق عبد الغني: «وليس هناك آية أخرى في القرآن تبين لنا حكم التوجه إلى بيت المقدس, فدلنا ذلك

---

(1) الخطيب، الكفاية ص14.

(2) البخاري (99/12 رقم 6789), كتاب الحدود, ومسلم (168/3، 169 رقم 1684), كتاب الحدود باب حد السرقة ونصابها.

(3) البخاري (140/12 رقم 6827)كتاب الحدود, ومسلم (181/3 رقم 1697), كتاب الحدود باب من اعترف على نفسه بالزنا.

كله أن النبي ρ وأصحابه كانوا عاملين بحكم لم ينزل به القرآن, وأن عملهم هذا كان حقًّا وواجبًا عليهم»[1].

➢ وهكذا كانت السنة النبوية سامقة المكان, وكان النبي ρ شريف المنزلة وعظيم الدور, فقد اختصه الله تعالى واصطفاه ليتحمل تبعات هذه الريادة، ويقوم بأعباء تلك القيادة.

➢ قال الإمام أحمد: «إن الله تقدست أسماؤه بعث محمدًا بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون, وأنزل عليه كتابه الهدى والنور لمن اتبعه, وجعل رسوله الدال على ما أراد من ظاهره وباطنه, وخاصه وعامه, وناسخه ومنسوخه»[2].

➢ وقال الشافعي: «فكل من قبل عن الله فرائضه في كتابه قبل عن رسول الله سنته، بفرض الله طاعة رسوله على خلقه, وأن ينتهوا إلى حكمه. ومن قبل عن رسول الله فعن الله قبل»[3].

∃ تمسك السلف بالسنة :

علم السلف قدر السنة فتمسكوا بها, واعتصموا بحبلها, واستضاءوا من مشكاتها واسترشدوا بصاحبها, ولم يكن في خلدهم أن يومًا يرد فيه بعض المسلمين على النبي ρ قوله آتٍ, أو يضع هؤلاء موازين عقول مضطربة, وأفهام متربصة للسنة النبوية.

➢ فهاهو صديق الأمة يقول: «لست تاركًا شيئًا كان رسول الله ρ يعمل به إلا عملت به, إني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ»[4].

➢ ويكلم فاروق الأمة الحجر الأسود في اتباع السنة مهما كان الأمر, وإن لم يتبين له علتها قائلاً: «والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولاتنفع, ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك»[5].

([1]) د. عبد الغني عبد الخالق, الرد على منكري السنة. مكتبة السنة. ط.1, 1409هـ -1989م.

([2]) ابن القيم, أعلام الموقعين (367/2), تحقيق عبد الرحمن الوكيل. دار الكتب الحديثة. 1389هـ.

([3]) الشافعي, الرسالة ص33 رقم 102.

([4]) البخاري (227/6 رقم 3093) كتاب فرض الخمس, ومسلم (240/3 رقم 1759), كتاب الجهاد.

([5]) البخاري (540/3 رقم 1597) كتاب الحج, باب ما ذكر في الحجر الأسود.